جيوردانو برونو

لألفرد فيبر(*)

للأستاذ عبد الكريم الناصري

ولد جيوردانو برونو Giordano Bruno في مدينة « نولا » — القريبة من نابلي — سنة ١٥٤٨ . وقد انضم في صباه إلى الأخوة الدومنيكية ؛ ولكن شغفه العميق بالطبيعة ، وتأثره بكتابات « نيقولا الكوسي (١) » و « ريموند لولوس (٢) » و « تيلسيو (٣) » سرعان ما حولاه عن حياة الرهبنة وعن المذهب الكاثوليكي . ثم ذهب مطوفاً في الآفاق ، فزار جنيف وباريس ولندن ، وزار ألمانيا فشرق فيها وغرب . ولكن البروتستانتية لم تقنعه أكثر مما أقنعه مذهب آبائه . وعند عودته إلى إيطاليا ألقي القبض عليه بأمر من محكمة التفتيش ، وسجن عامين ، ثم أعدم حرقاً في روما .

* * *

كان برونو أول ميتافيزيقي — في القرن السادس عشر — قبل نظرية مركزية الشمس بلا تحفظ . وكان ينظر إلى أفلاك أرسطو وتقسيماته للعالم على أنها محض أوهام . فليس للمكان مثل هذه الحدود التي رسمها له أرسطو ، هذه الحواجز المنيعة التي تفصل عالمنا عن ملكوت علوي خاص بالملائكة ، والأرواح المحضة ، والكائن الأعلى . ما السماء إلا الكون الذي لا حد له ، وما النجوم الثوابت إلا شموس تحيط بها كواكب سيارة ، ترافقها توابع أو أقمار . والأرض كوكب من هاته الكواكب ، ليس غير ، فما تشغل مكاناً مركزياً ممتازاً في السماء . ومثل ذلك يقال في شمسنا ، لأن الكون نظام من أنظمة شمسية .

وإذا كان الكون غير متناه فينبغي أن نقول : إنه لا يمكن أن يكون ثمت لا نهايتان ؛ ولكن وجود العالم لا يمكن أن ينكر ؛ إذن فالله والكون شيء واحد . وبرونو — لأجل أن يتخلص من تهمة الإلحاد — يميز بين الكون والعالم : فالله ، أو الموجود اللانهائي ، أو « الكون » ، هو مبدأ « العالم » أو علته السرمدية : هو الطبيعة الطابعة (أو الطبيعة مصدراً Natura Naturanc) ؛ أما العالم فهو كلية معلولات الله أو ظواهره : هو الطبيعة المطبوعة (أو الطبيعة معلولاً Natura Naturata) . وفيلسوفنا يرى أن من الإلحاد أن يعتبر الله والعالم شيئاً واحداً ، إذ ليس العالم إلا مجموع الكائنات الفردية ، والمجموع ليس بكائن ، وإنما هو لفظ فحسب . فأما اعتبار الله والكون شيئاً واحداً فليس بإنكار له ، وإنما هو ، على الضد من ذلك ، تعظيم له ، لأنه توسيع لفكرة الكائن الأعلى إلى ما وراء الحدود التي يفرضها عليه هؤلاء الذين يتصورونه كائناً « بجانب » الكائنات الأخرى : أي كائناً محدوداً.

(*) يعد « تاريخ الفلسفة » للعلامة الفلسفي الألماني ألفرد فيبر (Weber) من أهم المصادر الباحثة في موضوعه ، وقد ترجمه إلى الانجليزية « فرانك ثيلي » (Thilly) ، أستاذ الفلسفة بجامعة كورنل الأميركية .

وراجع الطبعات الأخيرة من الترجمة « رالف بيري » (Perry) ، أستاذ الفلسفة بجامعة هارفرد ، وأضاف إلى الكتاب تكملة في تاريخ الفلسفة منذ ١٨٦٠ (لأن كتاب فيبر ينتهي بشوبنهاور) . وهذا الفصل — الذي ترجمه عن الترجمة الانجليزية المذكورة ، والذي سأتبعه بفصول أخرى — هو الأول من (القسم الثالث) من الكتاب ، وهو القسم الباحث في « الفلسفة الحديثة » التي تبدأ ببرونو . وقد أضفت إلى المتن شروحاً تتعلق ببعض الفلاسفة أو المذاهب ، وبعض هذه الشروح مقتبس — باختصار — عن مواضع أخرى من الكتاب ، ولكني لم أشر إلى ذلك ، مكتفياً بهذا التنبيه .

(١) أوالكردينال نيكولاس كوسانوس ، إسمه الحقيقي « كريبس » توفي سنة ١٤٦٤ . « كان يشتمل على سجايا برونو وديكارت ، وكان من الشجاعة بحيث ينقد أخطاء الكنيسة علناً . ويرمي بالرجوع إلى فلسفة أفلاطون ، التي كان يراها هي ونظرية فيثاغورس في الأعداد شيئاً واحداً » ألف في الفلك والرياضيات ، وأبحاثه في هذا الباب تشتمل على بدايات مذهب كوبرنيكوس وإصلاح التقويم ، كما أن له أبحاثاً فلسفية قيمة .

(٢) الدون ريموند لولوس (١٢٣٤ — ١٣١٥) من مدينة بالما « مزاج غريب من اللاهوتي والطبيعي ، من المبشر و (التروبادور) ؛ سعى إلى تبسيط علم العرب بواسطة منهج عام أسماه (ارس ماغنا أي الصناعة الكبرى) . وقد أكبته تعاليمه — التي دونها في تآليف عديدة — أتباعاً متحمسين في خلال القرون التالية وكان همهم الأكبر اكتشاف حجر الفلاسفة وصنع الذهب » .

(٣) برنارد تيليسيو (١٥٠٨ — ١٥٨٨) من كوسنزا مؤسس (الاكاديميا تيليسيانا) في نابلي كان راسخ القدم في (الانسانيات) . وهو في تصوراته الكوزمولوجية يقترب من المدرسة (الأيونية) ومذاهبها الطبيعية .

ومن هنا كان يحلو لبرونو أن يدعو نفسه « فيلوثيوس » أى « محب الإلهى » ، إرادة أن يميز فى وضوح بين تصوره لله وبين الإلحاد . بيد أن هذه الحيطة لم تجده نفعاً ، ولم تفلح فى تضليل قضاته .

والواقع أن إله برونو لا هو خالق العالم بل ولا هو محركه الأول ؛ وإنما هو « نفس العالم » . إنه ليس علة الأشياء المتعالية Transcendent والموقتة ؛ وإنما هو — على حد تعبير اسبينوزا — علتها الحالة Immanent ، أى الباطنة الدائمة . إنه مبدؤها المادى والصورى معاً ؛ إنه المبدأ الذى يحدثها وينظمها ويحكمها « من الداخل نحو الخارج » . إنه بالإيجاز جوهرها السرمدى . إن الموجودين اللذين يميز بينهما فيلسوفنا بلفظى « الكون » و« العالم » ليسا فى الحقيقة إلا شيئاً واحداً ، يعتبر حينا من مقام « الواقعية » (بالمعنى المدرسى) وحيناً من مقام « الإسمية[1] » .

فالكون الذى يحوى ويحدث جميع الأشياء ماله من بداية ولا نهاية ؛ أما العالم — أى مجموع الموجودات التى يحولها ويحدثها — فله بداية ونهاية . ههنا — إذن — تحل فكرة الطبيعة والإحداث Production الضرورى محل فكرة الخالق والخلق Creation الحر ، وتعود الحرية والضرورة لفظين مترادفين ويرجع الوجود والقدرة والإرادة فى الله فعلا واحداً لا يتجزأ .

وإبداع العالم لا يكيف « الكون الإله » على أى نحو من الأنحاء ، وهو الكيان الواحد الثابت السرمدى اللامتناهى ، والممتنع على القياس وللمقارنة . فإنه إذ يفيض نفسه[1] يحدث مالا عداد له من الأجناس والأنواع والأفراد ، ومالا نهاية له من شتى القوانين والنسب (التى تقوم حياة الكون وعالم الظواهر) من غير أن يصير هو نفسه جنساً أو نوعاً أو فرداً ، أو يخضع لأى قانون من القوانين ، أو يدخل فى أية نسبة من النسب . إنه وحدة مطلقة لا تقبل الإنقسام ، ولا شأن لها بالوحدة العددية . إنه فى كل شىء وكل شىء فيه . وليس من موجود إلا ويحيا ويتحرك ويتقوم فيه . إنه حاضر فى سنبلة القمح ، وفى حبة الرمل ، وفى الهباءة التى تسبح فى شعاع الشمس ، كما هو حاضر فى « الكل » الذى لا حد له — لأنه لا يقبل الإنقسام . وحضور (الواحد) اللانهائى فى كل مكان ، حضوراً جوهرياً طبيعياً ، يفسر — وفى الوقت نفسه يهدم — الإعتقاد الدينى بوجوده الفائق الطبيعة فى « الخبز المقدس » ، وهو الاعتقاد الذى يعتبره الدومنيكى السابق حجر الزاوية فى المسيحية . وبسبب هذا الحضر الحقيقى للكائن اللانهائى فى كل مكان ، كان كل شىء فى الطبيعة حياً ؛ فلا سبيل إلى إعدام شىء ؛ وما الموت نفسه إلا تحول فى الحياة من شكل إلى آخر ... إن مزية الرواقيين تستقر فى أنهم رأوا فى العالم موجوداً حياً ؛ ومزية الفيثاغوريين تستقر فى أنهم أدركوا ما تتسم به النواميس الحاكمة للخلق السرمدى من الثبات والضرورة الرياضية .

وبرونو يسمى « اللانهائى » أو « الكون » أو « الله » بالمادة أحياناً . وليست المادة عنده « اللاوجود » الذى قال به المثالية اليونانية وقال به المدرسيون . فإنها عنده غير ممتدة ، أى « لا مادية » فى ماهيتها ، وليست تقبل وجودها من مبدأ إيجابى خارج عنها (الصورة) ، وإنما هى بضد ذلك المصدر الحقيقى للصور كلها ، إذ هى تنطوى على أصول هذه الصور جميعاً ، وتبرزها بالتعاقب . فما كان أول الأمر بذرة يصير ساقاً ، ثم سنبلة ، ثم خبزاً ، ثم عصارة ، ثم دماً ، ثم نطفة ، ثم جنيناً ، ثم إنساناً ، ثم جثة ، ثم يعود إلى الأرض أو الحجر أو ما إلى ذلك من المواد ،

(١) المذهب الواقعى أو الشيئى (Realism) فى اصطلاح القرون الوسطى هو القول بأن الكليات أو التصورات العامة أو المثل (كالجمال أو الانسان مثلا) هى حقائق أو أشياء (RES) قائمة بذاتها مستقلة عن أفرادها ، وليست تجريدات عقلية مستفادة من الجزئيات والأفراد ، كما يرى الاسميون (Nominaliste) . فان هؤلاء لا يرون فى الكليات أكثر من أسماء معان أو جموع ، وتجريدات فى الذهن ليس غير . ومن هنا يتضح للقارىء أن الشيئية أو الواقعية فى عرف القرون الوسطى ترادف المثالية بالمعنى اليونانى ، وتقابل (أى تضاد) الواقعية بالمعنى الحديث أما الاسمية فهى ترادف الواقعية بالمعنى الحديث . وقد احتدمت المناجلات بداية من القرن الحادى عشر حول هذين المذهبين . لأنه إذا كانت الاسمية على حق ، « فالكنيسة » التى تعتبر نفسها حقيقة قائمة بذاتها فوق الكنائس الجزئية وفوق جماعات المتصارى وأفرادهم ، ترتد مجرد اسم وتكون فى المحل الثانى بالنسبة الى الأفراد .

(١) (Unsolda itself)

لم يمر بعد بالمراحل نفسها من جديد . وهكذا نجد ههنا شيئاً واحداً يتحول إلى كل شيء ، ويبقى مع ذلك واحداً في جوهره . ومن ثم تبدو المادة وحدها ثابتة سرمدية ، وجديرة بأن تدعى مبدأ . إنها — وهي المطلقة — تتضمن الصور والأبعاد جميعاً ، وتطور من نفسها ما لا حد له من شتى الصور التي تستعلن فيها وتظهر . ونحن حين نقول إن شيئاً قد مات ، إنما نعني أن شيئاً جديداً قد ولد ؛ فإن انحلال مركب من المركبات معناه تكوين مركب جديد .

والنفس البشرية أعلى ما تتطور إليه الحياة الكونية ، فهي تنبثق من جوهر الأشياء كلها ، بفعل القوة نفسها التي تخرج السنبلة من حبة الحنطة . على أن لكل موجود في الكون جسماً ونفساً ، فجميع الموجودات « موناداتٌ » حية يستعلن فيها « موناد المونادات » أو « الكون الإله » في صورة جزئية وهيئة خاصة . والجسمانية هي الأثر الناشيء عن قوة المونادات التوسعية ، أو حركته نحو الخارج ؛ وفي الفكر ترجع حركة المونادات على نفسها . إن هذه الحركة المزدوجة ، من توسع وتمركز ، تقوّم حياة المونادات . وهي يدوم ما دامت هذه الحركة ، ويموت حين تقف ، ولكنه يختفي ليظهر وشيكاً في صورة جديدة . وعلى هذا يمكن أن يوصف تطور الكائن الحي بأنه اتساع مركز حيوي ، وتوصف الحياة بأنها ديمومة الكرة ، والموت بأنه تقلص الكرة وعودتها إلى المركز الحيوي الذي انبثقت منه .

إننا سنصيب هذه التصورات كلها ، وخصوصاً (تطوريّة) برونو ، في أنظمة (ليبنتس) و (بونيه) و (ديدرو) و (هيجل) فإن فلسفة برونو تنطوي على أصولها البدائية البسيطة . هذا إلى أن هذه الفلسفة ، من حيث هي توفيق بين الوحدية والذرية ، والمثالية والمادية ، والنظر والملاحظة ، تعتبر المصدر المشترك للمذاهب الأنطلوجية الحديثة .

(بغداد) عبد الكريم الناصري

إعلان

وزارة المعارف العمومية

الإدارة العامة للثقافة

الموسم الثقافي الأثري لعام ١٩٤٥—١٩٤٦

تعلن الإدارة العامة للثقافة بوزارة المعارف أنها رغبة في نشر الثقافة الأثرية وإيقاف الجمهور على مدى تقدم المصريين في ميادين الحضارة والفنون على اختلاف أنواعها وعصورها قد نظمت بالاتفاق مع الجهات المختصة برنامجاً يتضمن إلقاء محاضرات دورية في المتاحف والمباني الأثرية مصحوبة بزيارات تطبيقية وذلك على النحو الآتي :

١ — في المتحف المصري — أيام الجمعة — في الساعة العاشرة صباحاً (باللغة العربية) وفي الساعة الثالثة بعد الظهر (بالانجليزية أو الفرنسية) فيما بين ٩ نوفمبر سنة ١٩٤٥ و٥ أبريل سنة ١٩٤٦ .

٢ — وفي دار الآثار العربية — في أيام الاثنين الأول والثالث من كل شهر في تمام الساعة الثالثة بعد الظهر فيما بين ٥ نوفمبر سنة ١٩٤٥ و٢٠ مايو سنة ١٩٤٦ .

٣ — وفي المساجد والأبنية الأثرية الهامة والمتحف القبطي — في مواعيد يعلن عنها في الصحف اليومية وهذه المحاضرات مجانية وحدد عدد الحاضرين في كل منها بخمسة وعشرين شخصاً وتعطى التذاكر حسب أسبقية الطلب. أما البرنامج التفصيلي الذي يتضمن موضوعات المحاضرات وتواريخ إلقائها وأسماء المحاضرين فيمكن الاطلاع عليه عند أبواب المتاحف أو الحصول عليه من قسم المتاحف والمعارض بالوزارة .

أما بطاقات الحضور فيمكن الحصول عليها من المتحف المصري ودار الآثار العربية قبل موعد إلقاء المحاضرة بثلاثة أيام على الأقل . ٤٤٥٤